فجر الحضارة العربية القديمة

رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة (عاد ، ثمود ، مدين)

دراسة من خلال النصوص والمصادر

الدكتور عبد الله أبو الغيث
أستاذ تاريخ الجزيرة العربية والحضارات السامية القديمة المساعد
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء

أولاً: تمهيد:

سنعمل من خلال هذا البحث على دراسة الأقوام العربية (عاد، ثمود، مدين)، التي وصفناها بالعتيقة لأسباب سيأتي ذكرها، وسيكون ذلك من خلال النصوص والمصادر التاريخية، سواء تمثلت تلك النصوص بالنقوش الكتابية المتوفرة ، أو بنصوص الكتب السماوية المقدسة (التوراة، القرآن الكريم).

ومع أن أكثر المستشرقين يعدون التوراة مصدراً تاريخياً يعتمدون عليه في مؤلفاتهم التاريخية، إلا أنهم لا ينظرون بنفس النظرة إلى القرآن الكريم. ولعل ذلك هو ما جعل بعضهم يعدون قومي عاد وثمود مجرد أقوام أسطورية لا أساس لها في أرض الواقع، نظراً لعدم ورود قصتهم في التوراة، مثل قصة مدين، واقتصار ذكرهم على القرآن الكريم[1]. تجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين المسلمين ينحون ذلك النحو ولا يعتدون بالقرآن الكريم مصدراً تاريخياً، وحجتهم في ذلك أن ما يرويه القرآن الكريم

من أحداث ومواقف تاريخية ليس الهدف منها تسجيل تاريخ المجتمعات القديمة لذاتها، ومن ثم فإن الأحداث التي يرويها لا تعدو أن تكون مجرد أمثلة هدفها الحقيقي إظهار العظة والعبرة[٢]. وبالمقابل نجد من يرفض ذلك القول معتبراً أن القرآن الكريم يعد مصدراً مهماً لتاريخ العرب قبل الإسلام إلى جانب المصادر التاريخية الأخرى الموثوقة [٣]. أما القول بأن ما ذكر فيه عن هذه الأقوام وغيرها، لم يكن هدفه التأريخ لحضاراتها، بقدر ما تمثل في تقديم العظة والعبرة، فذلك من وجهة نظرنا هو خلاصة ما يبغيه دارس التاريخ، لأن الغاية الحقيقية من دراسة التاريخ إنما تتمثل في "معرفة الماضي لفهم الحاضر واستشراف المستقبل" ، وبالتالي فإن الهدف الحقيقي من دراسته لا يتمثل في سرد الأحداث وترديد الحكايات المتعلقة بالأقوام الغابرة، والبحث عنها لذاتها، وإنما هو إستقاء العظات والدروس والعبر من تلك الأحداث، وبمعنى آخر الاستفادة من خبرات الأجداد المتراكمة عبر تاريخنا الطويل، لأنه إذا لم يكن ذلك هو هدفنا من دراسة التاريخ، فإننا لن نكون إلا نباشي قبور، ومقلقين لحياة أولئك الأجداد في قبورهم، من غير هدف يرتجى أو غاية تنشد[٤].

ولا يعني ذلك أن دورنا في هذا البحث سيقتصر على إعادة ذكر تلك القصص القرآنية التي ذكرت هذه الأقوام، ومواقفها من دعوة أنبيائهم (هود، صالح، شعيب)، فذلك أمر اختصت به كتب التفسير، والكتب التي تخصصت في تتبع تاريخ الأنبياء، أما نحن فسنعمل من خلا ل هذا البحث على تتبع الأحداث التاريخية والمنجزات الحضارية لهذه الأقوام علنا نستطيع أن نكتشف بعض الغموض الذي يلف تاريخها شبه المجهول. وسنعتمد في ذلك على النصوص النقشية والقرآنية والتوراتية إلى جانب المصادر الأخرى.وسنحاول جاهدين تغطية الثغرات التي سكتت عنها النصوص والمصادر المتوفرة، وذلك عن طريق التحليل والمقارنة والاستنتاج وإن كنا لا ندعي هنا بأن ما توصلنا إليه عن طريق ذلك يصل جميعه إلى مرتبة النتائج الكاملة التي لا تقبل المناقشة، ولكننا نزعم أننا قد استطعنا أن نثير العديد من التساؤلات بغرض لفت الإنتباه إلى قضايا مهمة تخص الجوانب التاريخية والحضارية لهذه الأقوام، معتمدين على جهود من سبقنا في البحث وكل ما نأمله هو أن يمثل المجهود الذي بذلناه نواة لغيرنا من الدارسين المتخصصين في هذا الجانب ليبنوا عليه مستقبلاً، عسى أن نتمكن في يوم

من الأيام عبر المجهود الجماعي من كشف الغموض الذي يلف حضارات هذه الأقوام، وسيتضح لنا من خلال الصفحات التالية لهذا البحث بأن حضاراتها تمثل بحق فجر الحضارة العربية القديمة، وعصرها التاريخي يمثل العصر العتيق لهذه الحضارة الذي يسبق بقية العصور اللاحقة لها.

ثانياً: نشأتهم الحضارية:

أ) أنسابهم العربية:

تطلق كتب النسابة وأهل الأخبار على قومي عاد وثمود - ومعهم بعض القبائل العربية الأخرى مثل طسم وجديس – أسم العرب البائدة لزعمهم أنهم بادوا وانقرضوا عن آخرهم[٥]، وتلحق بهم في وصف الإبادة بعض القبائل المنتمية إلى أبناء إبراهيم عليه السلام مثل مدين[٦]، ويعتمدون في تأكيد تلك الإبادة على بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن عدم وجود بقايا لقومي عاد وثمود بعد أن حل بهم العذاب ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[٧]، ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾[٨].

والقول بانقراضهم عن آخرهم فيه مبالغة واضحة، وربما كان المقصود بلفظ البائدة هو عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى قبائلهم أثناء تدوين أهل الأخبار لمؤلفاتهم، حيث كانوا قد ذابوا في غيرهم من الأقوام لسبب أو لآخر[٩]. ولعل ذلك ما قصده ابن حزم بقوله ((فليس على أديم الأرض أحد يصح أنه منهم))[١٠]، أما الآيات السابقة التي تحدثت عن عدم وجود بقايا لقومي عاد وثمود فلعل المقصود بها الكفار منهم، لأن هناك آيات أخرى حدثتنا عن نجاة المؤمنين من أقوام عاد وثمود ومدين مع أنبيائهم[١١].

وتميل بعض المصادر العربية إلى رفض تسمية هذه الأقوام بالعرب البائدة، ويطلقون عليها اسم (العرب العاربة) وعلى القحطانين (العرب المستعربة) والعدناين (العرب التابعة)[١٢]، أي أنها تعدهم أصل العرب وأقدمهم، ويندرج ضمن ذلك قولهم بأن (عاد) هو أول من ملك من العرب وأن المقصود بالأولى في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى﴾[١٣]، هو قدم قوم عاد وأسبقية زمنهم على زمن الأمم الأخرى[١٤]، وليس المقصود به وجود عاد ثانية حسبما ذكر البعض[١٥]، وقد اتكأنا على ذلك في تسميتنا لهم بالأقوام العربية العتيقة واعتبار عصرهم بمثابة فجر الحضارة العربية القديمة، خصوصاً بعد أن لاحظنا أن زمنهم سابقاً لزمن الكيانات السياسية

التي عرفتها جزيرة العرب في عصرها القديم، وهو ما سنتناوله مفصلاً في الفقرة المخصصة لتحديد الزمن الذي عاشت فيه هذه الأقوام.

ويوصف العاديون بأنهم أقدم قبيلة من قبائل العرب البائدة، وقد أسرف أهل الأخبار في وصف عظمة أجسام أبناء قوم عاد إعتماداً على تفسير الآية الكريمة :﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[١٦] حيث وصل طول الواحد منهم في بعض الروايات إلى خمسمائة ذراع، وإن كان بعضهم قد رفض مثل تلك الأقوال وعدها من المبالغات، ذاكراً أن المقصود بهذه البسطة هو كونهم " أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش[١٧] "، والمرجح أن البسطة في الخلق التي ذكرها عنهم القرآن لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر في وقتنا الحاضر من ضخامة الأجسام مقارنة بغيرهم، خصوصاً بعد أن عرفنا بأن ما كانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول قد ثبت عدم صحته بعد كشف مومياتهم[١٨]. يؤيد ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن بسطة جسم طالوت مقارنة بغيره من المعاصرين له ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[١٩]

أما الثموديون فقد اختلف أهل الأخبار حول أصلهم، بين قائل إنهم من ذرية المؤمنين الناجين من قوم عاد مع نبيهم هودعليه السلام، وقائل أنهم إنما ينتمون إلى العماليق مثلهم مثل قوم عاد، بينما يرى آخرون أنهم من اليهود، ويذكر غيرهم أن نشأة الثموديين إنما كانت في اليمن قبل أن يغلبهم الحميريون ويجلوهم إلى منطقة الحجر في شمال الجزيرة[٢٠]. ونحن هنا وإن كنا لا نستطيع تأكيد الرأيين الأولين أو نفيهما، نظراً لانعدام المصادر التي تتحدث عن ذلك، إلا أنه بإمكاننا أن ننفي الرأيين الأخيرين، وذلك لأن الزمن الذي عاش فيه الثموديون المذكورون في القرآن الكريم يعد سابقاً لزمن ظهور اليهود في عهد موسىعليه السلام كما سنذكر لاحقاً، أو لزمن ظهور الحميريين، الذين لا يتعدى ذكرهم في النقوش المسندية القديمة النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد[٢١].

وبالنسبة للمديانين تجعلهم بعض كتب أهل الأخبار من العرب العاربة (البائدة) مثلهم مثل عاد وثمود[٢٢]، ويرى البعض أنهم قد سكنوا الحجاز (حول مكة) في بداية أمرهم مع أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، واستعربوا معهم، وعندما انتقلت قبيلة جرهم من اليمن إلى الحجاز تحالفت مع بني إسماعيل

وقامت بطرد قبيلة مدين إلى شمال الحجاز، التي عرفت باسمهم وصارت تدعى أرض مدين[٢٣]، تدل على ذلك مسمياتهم العربية، وعلى رأسها اسم نبيهم شعيب عليه السلام الذي يعد اسماً عربياً، تكرر ذكره في النقوش الثمودية والصفوية[٢٤]، وأشارت إليه المصادر العربية بصفته إسم للنبي شعيب، أحد الأنبياء العرب الخمسة، إلى جانب هود وصالح وإسماعيل ومحمد ﷺ[٢٥].

ب) مواطنهم في شبه جزيرة العرب:

من الضرورة بمكان تحديد المواطن التي عاشت فيها هذه الأقوام لمعرفة مدى ارتباطها بالحضارات العربية التالية لها، التي مثلتها الدول والكيانات السياسية التي ظهرت وتطورت في عصر ما قبل الإسلام على أرض شبه الجزيرة العربية.

فبالنسبة لقوم عاد فالخلاف كبير بين المؤرخين - القدماء منهم والمحدثين – حول الموطن الذي عاشوا فيه ومارسوا حياتهم على أرضه حيث تراوحت المواطن التي حددها أهل الأخبار لقوم عاد بين اليمن والحجاز والعراق وسوريا وفلسطين ومصر، مع ترجيح كبير لكفة منطقة "الأحقاف بين اليمن وعمان، من البحرين إلى حضرموت والشحر"[٢٦] على أساس أن أهالي هذه المنطقة يجزمون وحتى اليوم بوجود قبر النبي هود عليه السلام في أراضيهم بالقرب من مدينة تريم الحالية[٢٧]، حيث يعد المكان المفترض لقبره مزاراً لكثير من المسلمين من داخل منطقة حضرموت وخارجها حتى أيامنا هذه.

تجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين المحدثين يرفضون قول أهل الأخبار بأن ديار عاد كانت في حضرموت اليمن، ويذكرون أنها كانت في شمال الجزيرة العربية مجاورة لديار ثمود، مستندين في ذلك على ما جاء في الخريطة التي رسمها الجغرافي اليوناني بطليموس لجزيرة العرب، وظهر فيها أسم شعب (OadiTae) الذي يعتقد أن المقصود به عاد في منطقة شمال غرب الجزيرة العربية[٢٨]، إلى جانب قولهم أن الأحقاف- التي ذكرها القرآن الكريم موطناً لقوم عاد[٢٩] - لا تعني مكاناً محدداً بعينه، وإنما تعني الرمال بعامة، والجزيرة العربية أكثرها صحاري ورمال[٣٠].

وقد حاول بعض الباحثين التوفيق بين الرأيين بالقول إن عاداً قد انقسمت إلى أولى وثانية حيث عاشت الأولى في جنوب الجزيرة، بينما

عاشت الثانية في شمالها، وكان أفرادها عبارة عن جاليات هاجرت من جنوب الجزيرة[٣١]. ويستند القائلون بوجود عاد أولى وثانية إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى﴾ [٣٢]. وقد سبق القول أن هناك من يرفض فكرة وجود عاد أولى وثانية، معتبراً أن المقصود بالأولى هو أقدمية عاد وأسبقية عهدها على عهود الأمم الأخرى. وهناك أراء أخرى بخصوص هذا الموضوع سنتطرق إليها عند تناولنا لزمن قوم عاد ومدينتهم إرم.

أما فيما يخص موطن قوم ثمود، فالمصادر العربية تجمع على أن ثمود (المذكورة في القرآن الكريم) كانت منازلها في الحجر ووادي القرى وما حوله بين الحجاز والشام[٣٣]. أما الثموديون المذكورون في النقوش المنسوبة اليهم،فيمكن تحديد مواطنهم بناء على الانتشار الجغرافي لنقوشهم، حيث تقسم نقوشهم إلى أربع مجموعات جغرافية وهي: الثمودي التيمائي والثمودي النجدي والثمودي الحجازي والثمودي التبوكي، ويمتد زمنها في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن ق.م والرابع الميلادي[٣٤]، إلا أننا لا نستطيع القول أن الثموديين المذكورين في النقوش هم أنفسهم الثموديين المذكوريين في القرآن الكريم، نظراً للفارق الزمني بين الفترتين[٣٥]، بالإضافة إلى ما تعكسه النصوص المنسوبة إليهم من صورة مخالفة لما جاء في القرآن الكريم عن ثمود، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة عدم وجود علاقة عرقية بين الطرفين[٣٦]. ومن أجل ذلك وللتمييز بين الفترتين التاريخيتين للحضارة الثمودية، فإننا في ثنايا البحث سنطلق على ثمود المذكورة في القرآن الكريم اسم (ثمود الدهر الأول)، وعلى ثمود المذكورة في النقوش اسم (ثمود الدهر الثاني)، تجنباً لحدوث التباس حول الموضوع.

أما قوم مدين فقد عاشوا في المنطقة الممتدة شمال غرب الجزيرة العربية من وادي القرى إلى الشام (شمال الحجاز ، وجنوب فلسطين، وشبه جزيرة سيناء)[٣٧]، وما زال اسم مدين يطلق على المنطقة الجغرافية الواقعة في شمال الحجاز حتى وقتنا الحاضر[٣٨]. ويفهم من القرآن الكريم أن مدين إسم لقبيلة وإسم للإقليم الذي تعيش فيه، حيث قصدت القبيلة في الآيات التي ذكرت أن الله قد بعث إلى مدين أخاهم شعيباً عليه السلام[٣٩]، بينما قصد الإقليم في الآيات التي كانت تشير إلى أبناء القبيلة بأنهم أصحاب مدين[٤٠]، وأهل مدين[٤١]. وقد ذكرت مدين لدى الجغرافيين المسلمين على أنها بلد (مدينة) وقطر(إقليم) وقبيلة[٤٢].

ج) زمنهم خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد:

يذكر بعض المؤرخين أن قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة قد عاشوا بعد الميلاد، في عهد غير بعيد عن ظهور الإسلام، بدليل بقاء أخبارهم في ذاكرة أهل الأخبار[٤٣]. وذلك القول قد يصدق على بعض القبائل التي وصفت بالبائدة مثل قبيلتي طسم وجديس، حيث ذكرت المصادر العربية أن التبع اليمني حسان بن أسعد قد قتل جديس باليمامة بسبب قتلهم ملكاً من طسم كان موالياً لحمير[٤٤]. ونحن نعرف من خلال النقوش أن حسان يهأمن، كان مشتركاً في الحكم مع والده أبي كرب أسعد (أسعد الكامل) خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي[٤٥].

أما عاد وثمود فزمنهم لا بد أن يكون أقدم من ذلك التاريخ فقد جاء في القرآن الكريم أن عاداً هم خلفاء قوم نوح ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[٤٦]، وأن ثموداً هم خلفاء قوم عاد ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾[٤٧]، وأن عهدي عاد وثمود كان قبل مبعث موسى إلى بني إسرائيل ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[٤٨].

وقد اختلف المؤرخون حول الزمن الذي بعث فيه موسى، وقد امتدت تقديراتهم من القرن السادس عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد[٤٩]، وبناء عليه فإن التاريخ الذي عاش فيه قومي عاد وثمود يجب أن يكون قبل ذلك التاريخ. وتذكر بعض المصادر أن مهلك ثمود كان في عهد إبراهيم عليه السلام[٥٠]، الذي عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً[٥١]، وذلك يعني - في حالة صحته – أن ثمود (الدهر الأول) قد عاشوا في زمن سابق لذلك التاريخ، ربما يمتد إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

وإذا افترضنا صحة ما جاء في بعض المصادر من أن الفترة الزمنية الفاصلة بين هلاك عاد وهلاك ثمود تبلغ خمسة قرون تقريباً[٥٢]، فإن تاريخ هلاك قوم عاد المذكور في القرآن الكريم قد كان قريباً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً، وهذا يعني أن وجودهم ونشاطهم الحضاري كان سابقاً لذلك التاريخ بقرون عديدة.

أما قوم مدين فلا يعرف على وجه التحديد الزمن الذي عاشوا فيه، لكننا نستطيع تحديد ذلك بصورة عامة، من خلال ما ورد عنهم في التوراة

والقرآن الكريم. حيث تحكي التوراة أن الذين التقطوا يوسف عليه السلام من البئر الذي تركه فيه إخوته كانوا تجاراً من أهل مدين[٥٣]، وهو ما أشار إليه بعض المفسرين (ربما نقلاً عن التوراة)، عند تفسيرهم لقوله تعالى:﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ ﴾[٥٤]. وفي حال افتراضنا لصحة ذلك فهذا يعني أن قبيلة مدين كانت قد أصبحت موجودة وتسيّر القوافل التجارية في ذلك العهد، الذي يمكن تحديده بالنصف الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وما بعده، اعتماداً على ما سبق ترجيحه من أن نبي الله إبراهيم عليه السلام الجد الثاني ليوسف عليه السلام، قد عاش خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً.

وذلك أمر غير مستبعد لأن القرآن الكريم قد ذكر أن مبعث نبي الله شعيب عليه السلام إلى أهل مدين كان قريباً من زمن هلاك قوم لوط عليه السلام، الذي عاصر إبراهيم عليه السلام في آخر عهده ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾[٥٥]، حيث يرجح ثقاة المفسرين أن زمن شعيب عليه السلام كان قبل زمن موسى عليه السلام بمدة طويلة، (عاش موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريباً)، رافضين بذلك الرأي الذي ذهب إليه بعض المفسرين بقولهم أن شعيب عليه السلام هو نفسه الشيخ الكبير المعاصر لموسى عليه السلام[٥٦]، وقد بنوا رفضهم على أساس أنه لو كان ذلك الشيخ هو شعيب عليه السلام لكان القرآن صرح بذلك، خصوصاً أنه قد أورد لنا قصة شعيب عليه السلام في مواضع أخرى[٥٧]، إلى جانب قولهم أنه من غير المعقول أن يسقي أهل مدين قطعانهم قبل إبنتي نبيهم، خصوصاً أن ذلك كان بعد مهلك المكذبين منهم ولم يبق معه إلا المؤمنين الناجين[٥٨].

ونفهم من صريح الآيات القرآنية أن مبعث موسى عليه السلام- كان بعد فترة- ربما ليست بالقصيرة – من هلاك قوم شعيب عليه السلام، حيث قرنت قصة قوم شعيب في سورة الأعراف مع قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (الآيات/٥٩ – ٩٣)، ثم بعد ذكر العبر من قصصهم (الآيات/٩٤- ١٠٢) تأتي هذه الآية ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ (آية/١٠٣).

الأمر الذي يدل على أن المعاصر لموسى عليه السلام شخص آخر، وهو الذي تشير إليه التوراة بأسماء مختلفة، أبرزها (يثرون)، الذي جعلته كاهناً لمدين من غير أن تحدثنا عن ديانته أو دعوته[٥٩]، ولذلك رجح بعض المفسرين أن الشيخ المذكور في القرآن قد يكون هو ابن أخي شعيب عليه السلام أو رجل مؤمن من قومه[٦٠].

وهكذا يتضح لنا بأن هذه الأقوام قد عاشت خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد تقريباً، أي أن كياناتها كانت سابقة للكيانات السياسية والدول التي قامت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، حيث لا يتعدى ذكر هذه الدول - وفق ما نملك من مصادر - الألف الأول قبل الميلاد[٦١] أي أن عصرها يمثل بحق العصر العتيق للحضارة العربية القديمة.

ثالثاً: منجزاتهم الحضارية:

أ) حضارة قوم عاد:

من الصعوبة الحديث عن حضارة قوم عاد لعدم توفر المخلفات والبقايا الأثرية التي يمكن نسبتها إليهم، وذلك لما سبق ذكره من اختلاف المؤرخين حول تحديد ديارهم التي عاشوا فيها.

أما ما يمكن أن نستشفه عن حضارتهم، من خلال سور القرآن الكريم التي تطرقت إلى ذكر قصتهم مع نبيهم هود عليه السلام فيتمثل في التالي:

١- أنهم قوم عرفوا البناء المتقن، وأقاموا المصانع (القصور والحصون)، ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[٦٢].

٢- أنهم قوم عرفوا الزراعة وتربية الحيوان (الأنعام)، وأقاموا البساتين (الجنان)، وأن أرضهم كانت أرض خصبة تنتشر فيها الينابيع والغيول (العيون) وتكثر فيها الأمطار. ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[٦٣]﴿ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارا ﴾[٦٤].

٣- أنهم قوم تميزوا بالقوة، والترف والرخاء في المعيشة، ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[٦٥]، ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾[٦٦].

ورغم هذه الدلالات التي وردت عن جوانب حضارة عاد إلا أنه لا بد من التساؤل عن حول نظام الحكم الذي كان سائداً بينهم، وبخصوص ذلك نجد أن القرآن الكريم- باعتباره مصدرنا الوحيد عن حضارة قوم عاد حتى الآن- لم يتطرق صراحة إلى هذا الموضوع ، بل ألمح إليه إلماحاً، حيث يمكن أن نفهم في بعض الآيات أن هناك سلطة تزعمت المقاومة لدعوة النبي هود عليه السلام وتمثلت بالملأ﴿ قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾[٦٧] وقد تميزت هذه السلطة بالجبروت والعناد﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[٦٨] وإن كان يمكن أن نفهم من آيات أخرى أن صفة الجبروت كانت صفة عامة لجميع أبناء الشعب العادي ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[٦٩].

ب) حضارة ثمود:

وفيما يتعلق بالحضارة الثمودية ومظاهرها، فإن كل ما نستطيع ذكره عنها في الدهر الأول، هو تلك الإشارات التي وردت في القرآن الكريم وتتمثل في التالي:

١ – البراعة في فن النحت والبناء، حيث كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ويبنون القصور في السهول ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾[٧٠]. وقد استمر أهل المناطق التي عاشت فيها ثمود صالح عليه السلام يمارسون هذه التقنية الثمودية المبكرة من بعدهم، وكان منهم اللحيانيون والأنباط الذين يعتقد بأن أصولهم ثمودية[٧١].

٢ – ممارسة الزراعة المتنوعة، وخصوصاً زراعة النخيل، إعتماداً على العيون المائية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[٧٢] وربما يكون من المستبعد الاعتقاد بأن المقصود بالعيون المذكورة في الآية

السابقة هي أنهار أو غيول دائمة الجريان ،نقول ذلك مستأنسين بآيات أخرى وردت في قصة قوم ثمود وتتحدث عن قسمة الماء بينهم وبين الناقة ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[٧٣] ، الأمر الذي يدل على قلة الماء لديهم، حيث تذكر كتب التفسير أن الثموديين في مدينتهم الحجر كان لهم بئر هي التي كانوا يقتسمون ماءها مع الناقة[٧٤]. ولا زالت منطقة شمال غرب الجزيرة العربية التي عاشوا فيها، تشتهر حتى اليوم بحراتها الخصبة ذات الآبار العذبة، وبتمرها المميز الذي يعد من أجود أنواع التمور، الذي يذكرنا بنخيل ثمود ذات الطلع الهضيم، المذكورة في الآية.

٣ – رغم أن الآيات القرآنية قد سكتت عن نظام الحكم الذي كان سائداً في ثمود عند بعثة صالح عليه السلام، إلا أنها قد تحدثت عن الرفاهية والأمن الذي كان سائداً بينهم[٧٥]، الأمر الذي يوحي بسلطة تنظم شؤون ذلك المجتمع، وقد تحدث القرآن الكريم عن (ملأ ثمود)، وتحدثت كتب التفسير عن (نادي ثمود)، وهو ما يذكرنا بأنظمة الحكم التي سادت بعد ذلك في بعض المدن العربية خصوصاً مكة التي تميزت بدار الندوة وملائها المذكور في القرآن الكريم، ولعل التسعة الرهط الذين جهزتهم ثمود لقتل الناقة ومحاولة قتل صالح[٧٦] يذكرنا بالفتية الذين جهزتهم قريش لقتل الرسول محمد ﷺ قبل هجرته إلى يثرب في القصة المعروفة[٧٧].

كان ذلك ما استطعنا قوله عن مظاهر الحضارة الثمودية في الدهر الأول، أما وضعها في الدهر الثاني، فنفهم من نقوشهم ورسوماتهم أنهم كانوا يشكلون مجتمعاً حضرياً أكثر منهم بدو، حيث مارسوا الزراعة والصيد وركبوا البحر بسفنهم[٧٨]، وعرفوا الطب والمعالجة[٧٩]. ويعتقد أن الثموديين كانوا هم أول من قاد القوافل الأولى بين اليمن والشام[٨٠]، حيث قاموا بدور الوسيط التجاري بين المنطقتين، نظراً لموقع بلادهم المهم في أعالي الجزيرة العربية على الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بالشام ومصر وعالم البحر المتوسط، نستدل على ذلك من وجود النقوش الثمودية في اليمن وسيناء وإيلة (العقبة)، وكلها مراكز تجارية مهمة في تلك الفترة. ووجدت عبارات في نقوشهم تفيد أنهم كانوا أهل قوافل أو حماة قوافل، مثل عبارة (أهل عر) أي أهل العير[٨١].

ج) حضارة مدين:

أما فيما يخص الجوانب الحضارية لشعب مدين، فقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها على النحو التالي:

١) ممارستهم للتجارة، حيث ركزت الآيات القرآنية على هذا النشاط الذي مارسه المديانيون، وذلك من خلا تكرارها لذكر المكيال والميزان في إطار دعوة نبيهم شعيب عليه السلام لهم بإيفاء الكيل والوزن، وعدم الإحتيال في إنقاصها ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾[٨٢]، ﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾[٨٣]، الأمر الذي يشير إلى أن التجارة قد مثلت المهنة الرئيسية لشعب مدين، واعتمدت عليها مقومات حياتهم بدرجة أساسية، وقد سبق القول عن تسييريهم للقوافل التجارية منذ عهد النبي يوسف[٨٤] عليه السلام.

وقد ساعدهم على ذلك وقوع بلادهم على طريق التجارة الرئيسي، الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بمصر وبلاد الشام وعالم البحر المتوسط[٨٥]، وقد تمكنوا من جمع ثروات طائلة جراء ذلك، حسب ما نفهم من القرآن الكريم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾[٨٦]، وهذه صفة ميز بها القرآن الكريم إلى جانبهم قوم ثمود[٨٧]، ونلفت الإنتباه أن الثموديين قد عاشوا في منطقة شمال غرب الجزيرة العربية، وكان ذلك قبل أن تستوطنها القبائل المديانية (ثمود الدهر الأول)، وبعد أن استوطنتها (ثمود الدهر الثاني)، الأمر الذي يجعلنا نتسائل عن سر هذا التداخل الحضاري بينهما، وعن مدى وجود علاقة عرقية تربطهما، ولعل التنقيبات الأثرية الجديدة تكشف لنا عن هذا السر.

٢) يتحدث القرآن الكريم عن ملأ مدين، وهو ما يجعلنا نشير إلى نظام الحكم الذي ساد بينهم، حيث يرجح البعض انه قد تمثل في نظام دولة المدينة، إعتمادا على ذكر التوراة لتعاصر خمسة من ملوكهم في الفترة التالية لعصر النبي شعيب عليه السلام[٨٨]. ويتضح من القرآن الكريم أن مدين كان لها كيانها القوي خلال الفترة التي ألتجأ فيها موسى عليه السلام إليهم هربا من

فرعون، وعدم قدرة فرعون على مطاردته في أراضيهم ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٨٩].

وقد حدثتنا التوراة عن صراع عنيف دار بين اليهود و المديانيين، امتد من عهد موسىعليه السلام بعد خروجه من مصر إلى الفترة التي سبقت ظهور النبي/الملك داودفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ووفقا لما جاء في التوراة ، فقد كانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وسوف نتجاوز هنا عن ذكر هذه الحروب لكون كُتاب التوراة قد أضفوا عليها كثيرا من المبالغة، حيث حدثونا في أكثر من موضع عن إبادة اليهود للشعب المديانى بأكمله (رجالاً ونساءً وأطفالاً)، لكننا سرعان ما نجدهم يتحدثون عن تجدد الحروب مع المديانيين، من غير أن يحدثونا عن الكيفية التي عاد بها أهل مدين إلى الوجود[٩٠].

٣) نعرف من قصة لجوء موسىعليه السلام إلى مدين بأن أهل مدين قد مارسوا مهنة الرعي ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[٩١]، ومع أن التوراة قد ذكرت أن القطعان التي سقاها موسىعليه السلام كانت من الغنم[٩٢]، إلا أننا نعتقد بأن كلمة (تذودان) في الآية القرآنية تشير إلى الإبل، ونتكئ في ذلك الاعتقاد على ما ورد في المعاجم العربية من أن (الذود) هو مجموعة من الإبل من الثلاث إلى العشر، والكثير (أذواد)، وفي المثل (الذود إلى الذود إبل)، و (ذاد الإبل) أي ساقها وطردها[٩٣]، وإلى اليوم يسمى راعي الإبل (ذواد)، ونعرف من التوراة مدى اهتمام أهل مدين بتربية الجمال، وكثرتها العددية لديهم، فقد ذكرت إن "جمال أهل مدين كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة"[٩٤]، وأنهم قد استخدموها في نقل البضائع السبئية إلى بلاد الشام ومصر[٩٥] ، وكذلك استخدموها في حروبهم، حيث اشتهروا في التاريخ كأول أمة تستعمل الجمل في حروبها[٩٦]، وقد استمر ذلك التقليد لدى سكان المنطقة، حيث يحدثنا الملك الآشوري شلمنصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد، عن مشاركة الزعيم العربي الشمالي (جنديبو العربي) في الحرب التي دارت ضده في معركة قرقر، بألف من راكبي الجمال[٩٧] .

٤) رغم سكوت القرآن الكريم عن الإشارة إلى ممارسة أهل مدين للزراعة، التي أشار إليها عند حديثة عن عاد وثمود، إلا أن انتشار الواحات في المنطقة التي سكنوها يؤكد ممارستهم لهذه المهنة، إما اعتماداً على مياه الأمطار، أو على السقي من الآبار، وكان من أهم محاصيلهم التمور والأعناب والحبوب والبقول والخضر والفواكه وغيرها. وقد عرفوا كذلك إستخراج المعادن (ذهب، فضة، نحاس، حديد، قصدير، رصاص)، وأيضاً صناعة الفخار، الذي يعود زمنه في بعض المستوطنات المديانية إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد[٩٨].

رابعاً: عواصمهم الحضرية:

أ- إرم عاد وحقيقتها التاريخية:

أختلف المفسرون وأهل الأخبار في المقصود بإرم ذات العماد التي ذكرت في القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾[٩٩]، وقد أجمل ابن كثير في تفسيره تلك الاختلافات، حيث عدها البعض وصف لقبيلة عاد ويصبح المعنى (عاد إرم) لأن المراد - حسب قول أصحاب هذا الخبر- إنما هو الإخبار عن هلاك القبيلة بدليل قوله تعالى في الآية التالية (التي لم يخلق مثلها في البلاد)، حيث كانت قبيلة عاد قد وصفت بمثل هذه الأوصاف في آيات أخرى. ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[١٠٠]، ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[١٠١]، إلى جانب قولهم أنه لو كان المقصود المدينة وليس القبيلة لقال (التي لم يعمل مثلها في البلاد وليس لم يخلق) وبالتالي فإن المقصود بالعماد في الآية إما أن يكون طول قاماتهم، أو الأعمدة الشداد التي ترفع بها بيوتهم المصنوعة من الشعر (الخيام)[١٠٢].

وبالمقابل فإن هناك من ذكر أن المقصود بإرم إنما هو مدينة إرم التي كانت بيت المملكة العادية (العاصمة) ويكون المعنى (عاد وإرم ذات العماد)، وتكون صفة ذات العماد هنا وصف لمدينة إرم ويقصد به أبنيتها الضخمة التي ميزت هذه المدينة. وقد بالغ بعض القائلين بهذا الرأي في وصف مدينة إرم وجعلوها مبنية من الذهب والفضة والجوهر، وجعلها

بعضهم مدينة تتنقل في الأرض، فتارة تكون في اليمن وتارة في الشام وثالثة في العراق وأخرى في مصر، وهكذا في بقية أصقاع الأرض[١٠٣].

وبغض النظر عن المبالغات المشار إليها - والتي نضم صوتنا إلى صوت ابن كثير في عدها من الخرافات التي وضعها البعض نقلاً عن زنادقة الإسرائيليين - فإننا نميل إلى ترجيح الرأي القائل بأن (إرم) إنما هو إسم لمدينة عادية وليس اسماً مرادف لقبيلة عاد، وقد بنينا ترجيحنا هذا اعتماداً على العديد من الملاحظات التي نرى أنها تفند المعطيات التي اعتمد عليها أصحاب الرأي الآخر القائل بأن المقصود بإرم إنما هو قبيلة عاد، وتتمثل هذه الملاحظات في التالي:-

١) بالنسبة لقولهم: أن إرم صفة تميزية لعاد لا ينفي كون إرم مدينة لأن وصف قبيلة عاد بأنها عاد إرم قد يعني أن القبيلة نسبت إلى الإقليم الذي تعيش فيه أو إلى أهم مدنه، ربما تمييزاً لها عن أحد فروعها أو عن قبيلة أخرى تحمل نفس الإسم، كقولهم أزد عمان وأزد السراة.

٢) أما قولهم بأن السياق كان يتحدث عن إهلاك القبيلة فلا ضير من ذكر عاصمتهم وعظمتها في هذا السياق لكونها المكان الذي نزل فيه العذاب، ولكون عظمتها شاهدة على نكرانهم للنعمة التي هم فيها والتي تستحق الشكر وليس الكفران الذي بسببه استحقوا نزول العذاب، ويذكرنا هذا بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[١٠٤]، مع أن المقصود كل قوم ثمود في الحجر وخارجها.

٣) وفيما يخص قولهم أنه لو كانت إرم عبارة عن مدينة وليس قبيلة لما قال في الآية التالية ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وإنما سيقول (التي لم يعمل مثلها في البلاد)، فذلك ليس كلاماً قاطعاً لأن الخلق لا يقتصر إطلاقه على أفعال الله سبحانه وتعالى فقط ويجوز إطلاقه على ما يفعله البشر[١٠٥]، مثل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[١٠٦]. وحتى إن كانت صفة الخلق قاصرة على الله فلا مانع أن يكون الضمير في قوله (لم يخلق مثلها) عائداً على قبيلة عاد المذكورة في بداية الكلام وتكون إرم مشمولة بصفتها جزءاً من القبيلة، أو يكون ذكرها عبارة عن جملة اعتراضية لا تمنع عودة الضمير بعدها على ما ذكر قبلها (أي قوم عاد)، خصوصاً أن ذلك يتكرر في العديد من السور القرآنية[١٠٧].

٤) نصل أخيراً إلى قولهم: إن المقصود بالعماد في الآية هو أعمدة خيامهم، فبالعودة إلى معاجم اللغة وجدناها تذكر أن عمود البيت يجمع على صيغة (أعمدة) و (عمد)، أما (العماد) فالمقصود بها لديهم الأبنية الرفيعة والواحدة منها (عمادة)[١٠٨]. وهذا يرجح كون (إرم) مدينة ذات أبنية مرتفعة يؤكد ذلك ما سبق أن ذكرناه من أنهم قد عرفوا البناء وأقاموا القلاع والحصون ﴿اتبنون بكل ريع آية تعبثون ۞ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ إضافة إلى تصريح القرآن الكريم بأن مساكنهم قد بقيت بعد تدميرهم ﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾[١٠٩] رغم الريح الشديدة التي تعرضت لها ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[١١٠] ولذلك فهي لم تكن من الخيام بطبيعة الحال. ويدخل ضمن هذا قولهم: بأن ذات العماد ربما يكون المقصود بها طول قامات قوم عاد لأنه لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، على أساس ما سبق ذكره من أن القبيلة ربما تكون قد نسبت إلى عاصمتها أو مدينتها الأشهر ويكون المعنى (قوم عاد- الساكنين مدينة إرم- ذوي القامات الطويلة).

وبناء على ما تقدم ذكره فنحن نرى أن إرم - في الغالب – ما هي إلا مدينة لقوم عاد، وإذا كانت كذلك فلا بد أن تكون عاصمتهم (بيت مملكتهم)، أو على الأقل أهم و أشهر حواضرهم. ويبقى السؤال أين الموقع الحقيقي لهذه المدينة، وهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه في الوقت الحاضر ما لم نتمكن من تحديد البقايا الأثرية لهذه المدينة، التي لا يستبعد أن تكون مطمورة تحت الرمال في مكان ما من أرض الجزيرة العربية المترامية الأطراف[١١١].

ب – حجر ثمود وموقعها الحقيقي:

لم يدر خلاف بين المفسرين وأهل الأخبار حول الحجر المذكورة في القرآن الكريم[١١٢]، مثلما دار حول إرم عاد السالف ذكرها، والأيكة المذكورة في قصة النبي شعيب كما سنوضح ذلك في الفقرة التالية، فقد اتفقت المصادر العربية بأن الحجر كانت من مواطن الثموديين الذين قطنوا فيها وما حولها من الأرض الممتدة بين الحجاز والشام، وربما كان سبب ذلك الاتفاق عائداً إلى الرواية التي تذكر أن الرسول (ص) قد مر في الحجر أثناء سيره إلى تبوك في السنة التاسعة للهجرة، واخبرهم بأنها ديار قوم

ثمود، وحدد لهم الأماكن التي كانت ترتادها الناقة المذكورة في قصة نبي الله صالح المرسل إلى ثمود[١١٣].

ويسود الاعتقاد أن حجر ثمود هي الموضع الأثري المسمى (مدائن صالح)[١١٤]، (التي ربما سميت بهذا الاسم نتيجة لذلك الاعتقاد)، لكن بعض المؤرخين المحدثين يميلون إلى أن مدائن صالح ليست هي حجر ثمود، بل حجر الأنباط. أما الموقع الحقيقي لحجر ثمود في نظرهم إنما هو موضع الخريبة، الواقع على بعد عشرة أميال من مدائن صالح، وذلك لأن وصف العذاب الذي أصاب الثموديين قوم النبي صالح، كما ذكر في القرآن الكريم (الرجفة - الزلزلة) لا يتحقق في الموقع المعروف بمدائن صالح، ويتحقق وفق مشاهدة بعضهم في موقع الخريبة[١١٥] وإن كان بعضهم قد وقع في خطأ آخر باعتبارهم أن الخريبة هي مدينة العلا الحالية (ديدان)[١١٦]، وربما كان سبب ذلك هو تقارب المواقع الثلاثة. والصحيح أن الخريبة غير العلا لأن الخريبة تقع إلى الشمال من مدائن صالح، بينما تقع العلا في الجهة الجنوبية منها[١١٧].

ونحن إذ نميل إلى ترجيح هذا الرأي فإننا نتساءل حول ما إذا كانت الحجر هي عاصمة الثموديين، ولعل الإجابة بنعم هي الإجابة المنطقية على هذا السؤال، وذلك لأن الحجر قد حلت في القرآن الكريم نيابة عن ثمود في قوله تعالى ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ الأمر الذي يعني أن ملاء ثمود (علية القوم) - الذين وصفوا في آيات أخرى أنهم من تزعموا تكذيب نبيهم صالح - كانوا يعيشون فيها، وفيها دارت قصتهم مع الناقة[١١٨]، وغالباً هي المدينة التي ذكرت في قصة النبي صالح وقومه مع ثمود ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[١١٩]. وبالتالي لا يمكن أن تكون لها كل هذه المكانة إلا إذا كانت هي عاصمة الإقليم الثمودي الممتد بين الحجاز والشام حسبما ذكرنا سابقاً، أو على الأقل الحاضرة الأولى لهم في حالة افتراضنا عدم وجود كيان سياسي منظم لهم (دولة، مملكة) كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين[١٢٠].

ج – الأيكة هل كانت عاصمة مدين؟

ذكر القرآن الكريم في قصة شعيب عليه السلام الأيكة (لئيكة) إلى جانب مدين، وقد جعل ذلك بعض المفسرين يفترضون أنها منطقة أخرى منفصلة

عن مدين بُعث إليها شعيب عليه السلام بعد هلاك مدين، مستدلين بما أورده القرآن الكريم من أن العذاب الذي أصابهم هو(الظلة)[١٢١]، وليس (الصيحة والرجفة) التي وصف بها عذاب مدين. وقد رفض ثقاة المفسرين ذلك الإفتراض مؤكدين إن الأيكة ما هي إلا جزء من مدين، نظراً لأن شعيب عليه السلام قد أمر أهلها بنفس الأوامر التي أمر بها أصحاب مدين، مثل وفاء المكيال والميزان، أما وصف العذاب المختلف فهو لا يعني تعدد الأماكن والأمم، وإلا لتطلب الأمر أن تكون مدين أمتين لاشتمال عذابها على الصيحة والرجفة، ويخلصون إلى كون الأيكة من مدين، وقد اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، بحيث ذكر في كل سورة العذاب الذي يناسب سياق القصة فيها[١٢٢].

ونذكّر هنا أن عذاب ثمود من قبلهم، قد وصف بالصيحة والرجفة والطاغية والصاعقة، ولم يقل أحد أنهم أكثر من أمة، رغم ذكر الحجر مع ثمود. والراجح أن الأيكة بالنسبة لمدين كانت كالحجر لثمود، أي أنها كانت حاضرتهم الرئيسية، خصوصاً لما نراه من تشابه في سياق ذكرهما في القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[١٢٣]،﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٢٤]. والسؤال هنا، هل كانت الأيكة هذه هي بلدة مدين التي أشار إليها أهل الأخبار المسلمين وجعلتها بعض المصادر – السابقة لهم – مدينة مدين، عندما ذكرت أن موسى عليه السلام لجاء إليها[١٢٥] ؟، ويكون إطلاق إسم مدين عليها في هذه الحالة من باب إطلاق إسم الكل على الجزء الأهم والأشهر فيه، كإطلاق إسم الشام على دمشق، ومصر على القاهرة، ذلك احتمال قوي.

ويقودنا الاحتمال السابق إلى سؤال آخر، وهو أين موقع مدينة الأيكة؟ وقد تعددت الآراء بخصوص ذلك، حيث يرى البعض أنها ربما تكون (تبوك)، أو أنها (الحوراء) على الساحل الشمالي للحجاز (ساحل منطقة مدين) وأنها هي التي عرفت في المصادر الكلاسيكية بـ (لويكة كومة)[١٢٦]. ورغم عدم إعتراضنا على هذه الآراء، إلا أننا نلفت الإنتباه إلى ما ذكرته المصادر العربية من أن موقع مدينة مدين (ربما الأيكة حسب افتراضنا) كان بالقرب من مدينة معان[١٢٧] (جنوب الأردن الحالية)، وكذلك قولهم أن الأيكة هي الغيظة من الشجر خصوصاً السدر المثمر (الدوم)[١٢٨]، وهو ما

ينطبق كثيراً على واحة البدع الحالية، التي تقع بالقرب من وسط الساحل الشرقي لخليج العقبة إلى الناحية الجنوبية من معان، وما زالت تحتفظ بنفس تلك المواصفات حتى وقتنا الحاضر[١٢٩]، بل إن إحدى مناطقها ما زالت تحمل إسم (أيكة الدوم)، إلى جانب كونها محطة على طريق التجارة الرئيسي، واحتوائها على كثير من الآثار المديانية، ووجود كهوف جبلية تحمل اسم (مغاير شعيب)[١٣٠]، وهو ما يرجح كفتها لأن تكون هي مدينة (أيكة - مدين)، وإن كان ذلك لا يمنعنا من ختم حديثنا عن الأيكة بالإشارة إلى موضع ما زال يحمل اسم (الأيكة- ليكة)، ويقع إلى الشمال الغربي من مدائن صالح[١٣١]، أي في منطقة مدين، وتذكرنا ثنائية نطق اسمه حالياً بثنائية رسم الإسم في القرآن الكريم، الذي ورد بصيغة (الأيكة) مرتين[١٣٢]، وبصيغة(لئيكة) مرتين أخريين[١٣٣].

خامساً: أوضاعهم الدينية:

أ – معالم الديانات الوثنية وطبيعة الدعوة الجديدة:

سنعمل قدر المستطاع على إعطاء لمحة عن الديانات الوثنية التي كانت سائدة لدى الأقوام العربية العتيقة الثلاثة (عاد، ثمود، مدين) وطبيعة الديانات السماوية الجديدة التي أتت لتحل بدلاً عنها، وسيكون ذلك من خلال استقراء النصوص القرآنية- مصدرنا الوحيد تقريباً- التي تحدثت عن دعوة الأنبياء المرسلين إلى هذه الأقوام (هود، صالح، شعيب) وحوارتهم الدينية التي دارت بينهم وبين كبراء قومهم المدافعين عن دياناتهم الوثنية المتوارثة بينهم.

وفي ذلك الإطار نجد أن القرآن الكريم يذكر لنا أن قوم عاد كانوا يعبدون آلهة وثنية ﴿ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾[١٣٤]، ومع أنه لم يسم لنا الأصنام التي كانوا يعبدونها إلا أن البعض قد سماها وجعلها ثلاثة أصنام (صدا، وصمودا، وهردا)[١٣٥]، وفي كل الأحوال فإن كل ما نعرفه عن دعوة النبي هود عليه السلام لقومه عاد هو أنه دعاهم لعبادة الله وحده، شكراً للنعم التي منَ بها الله عليهم ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[١٣٦] ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾[١٣٧]، ولم يرد في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن طبيعة هذه الديانة وتعاليمها، وهل كان لها كتاب سماوي أم لا [١٣٨].
وبالنسبة للديانة الثمودية السابقة لدعوة النبي صالح فقد كانت أيضاً ديانة وثنية تقوم على عبادة آلهة من دون الله فقد ورد في القرآن الكريم أن ثمود في عهد صالح عليه السلام كانوا يعبدون آلهة وثنية من دون الله﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[١٣٩]،وأن ديانتهم الوثنية كانت متوارثة منذ عهد أسلافهم. ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[١٤٠].

ورغم أن الآيات القرآنية التي تحدثت عن نبي الله صالح عليه السلام لم تفصل لنا طبيعة دعوته وتعاليم ديانته الجديدة إلا أن الآيات القرآنية قد حدثتنا عن نهي النبي صالح عليه السلام لقومه عن الفساد الذي يمارسونه ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[١٤١]، من غير أن توضح لنا كنه ذلك الفساد. ونعرف من كتب التفسير أن النساء الثموديات هن من تولى قيادة المقاومة ضد الدين الجديد، وكن المحرضات الرئيسيات على قتل الناقة ومحاولة قتل صالح عليه السلام، وقدمن أنفسهن متعة لمن سينفذ المهمة[١٤٢]. والسؤال هنا، هل كان الفساد الأخلاقي هو الذي عناه صالحاً في الآية ؟ وهل كانت المرأة الثمودية تتمتع بحرية مطلقة في ممارسة نزواتها ؟ فجاءت ديانة صالح عليه السلام الجديدة لتنهى عن ذلك ؟ ومع أننا لا نملك إجابة مؤكدة عن الأسئلة المطروحة، إلا أننا نكتفي بالإشارة إلا وضع المرأة الثمودية في نقوش الدهر الثاني، حيث دلت مناظر النساء على أن المرأة الثمودية كانت شديدة الرغبة في التزين وارتداء الحلي بمختلف أنواعها[١٤٣]، ونفهم من بعض نقوشهم أن المرأة اللعوب مع الخمرة كانت من الأشياء المحببة إليهم[١٤٤].

أما ديانة قوم مدين فقد ذكر عنهم القرآن الكريم أنه كان لهم ملة (ديانة) يعتنقونها من دون الله وهي ديانة ورثوها عن أسلافهم ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[١٤٥]، فأرسل الله إليهم نبيه شعيب عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك معبوداتهم الأخرى، ﴿قَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[١٤٦]، وترك الإفساد في الأرض، ويبدو أن الفساد المقصود كان هو الفساد الاقتصادي المتمثل بالغش في المكاييل والموازيين، واستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل الكسب المادي ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[١٤٧]. واستخدام أموالهم التي يكسبونها من ذلك في العبث، وفق مفهوم خاطئ لحرية استخدامهم لها منطلقين من مبدأ ﴿ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾[١٤٨].

ب – الموقف من الديانات السماوية ونتائجه:

بغض النظر عن طبيعة الديانات التي أتى بها الأنبياء العرب الثلاثة إلى أقوامهم، إلا أن مصيرها كان الرفض من قبل أغلبية المنتمين إلى تلك الأقوام وعلى رأسهم كبرائهم(الملأ)، ابتداء بقوم عاد ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾[١٤٩]، وتثير كلمة رسله الواردة في الآية السابقة بصيغة الجمع تساؤل عما إذا كان هناك أكثر من رسول قد بعثوا إلى هذا الشعب، ومن الصعب الإجابة عن هذا التساؤل، خصوصاً أن القرآن الكريم في سوره المختلفة التي تحدثت عن قوم عاد لم يذكر لنا إلا رسول وحيد هو(هود عليه السلام)[١٥٠]. وبالعودة إلى تفسير الآية لدى ابن كثير، وجدناه يذكر أن المقصود برسله هنا هم جميع رسل الله، " وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود عليه السلام فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل"[١٥١].

على كل حال فإن نهاية شعب عاد بموجب ما أخبرنا به القرآن الكريم قد تمثلت بالقضاء عليهم بواسطة ريح شديدة، أرسلت عليهم جزاء كفرهم[١٥٢] بعد أن نجى الله نبيه هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين به ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾[١٥٣]، حيث يرى بعض المؤرخين أنهم شكلوا ما عرف بعاد الثانية كما سبقت الإشارة، وظل فيهم نبيهم هود عليه السلام حتى توفاه الله. وكما اختلف المؤرخون حول موطن عاد ومكان مدينتهم إرم، فقد اختلفوا أيضاً في البقعة التي احتوت رفاة النبي هود عليه السلام، حيث جعلها بعضهم دمشق وبعضهم فلسطين

وبعضهم مكة، أما أرجح الآراء فقد جعلتها حضرموت اليمن[١٥٤] كما سبق وذكرنا.

أما قوم ثمود فإنهم عندما ألح عليهم نبيهم صالح في دعوته طلبوا منه آية، فكانت الناقة، ولكنهم لم يستجيبوا له، واستمروا في غيهم، وقاموا بعقر الناقة، بل ومحاولة قتله هو نفسه[١٥٥]،وقد كان ذلك بداية النهاية لقوم ثمود، حيث أمهلهم نبيهم صالح عليه السلام مدة ثلاثة أيام، ليحل بهم عذاب السماء، وكانت الصيحة والرجفة (ربما الصواعق والزلازل) هي أبرز ملامحه، حيث نجى الله نبيه صالح عليه السلام ومن آمن به ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[١٥٦]. وقد اختلفت كتب المفسرين والآخباريين حول المنطقة التي سكنها أولئك الناجون من العذاب، فجعلوها تارة في فلسطين، وتارة مكة أو اليمن[١٥٧].

ولا ندري عن علاقة هؤلاء الناجين من ثمود صالح عليه السلام بثمود (الدهر الثاني)، الذي نعرف من نقوشهم أنهم كانوا على الديانة الوثنية.

وقد سبق أن ذكرنا أن كتابات الثموديين في دهرهم الثاني اختفت في القرن الرابع الميلادي واختفى معها ذكر الثموديين، حيث لم يعد لهم وجود عند ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي؛ اللهم إلا ما ذكره البعض من أن نسب قبيلة ثقيف يمتد إلى ثمود[١٥٨](ربما نكاية بالحجاج بن يوسف الثقفي)، وأن أهل نجد يعتقدون أن قبائل بني هلال ذات أصول ثمودية[١٥٩].

وكذلك كان الحال مع دعوة النبي شعيب حيث استكبر زعماء قومه (الملأ) عن الانصياع لدعوته، وتزعموا تكذيبه، وعملوا على معارضته، والترصد لمن آمن من قومه ومضايقتهم ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾[١٦٠]، وهددوه بطرده هو وأتباعه المؤمنين من مدين إذا صمموا على اعتناق ديانتهم الجديدة، وعدم العودة إلى ملتهم السابقة ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[١٦١]، لكن شعيباً عليه السلام رفض الخضوع لتهديداتهم ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾[١٦٢]، وذكرهم بما حل بأقوام الأنبياء السابقين له[١٦٣]، لكن ذلك لم يزدهم إلا كفراً وعتياً وسخرية منه ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[١٦٤]، عند ذلك شعر شعيب عليه السلام بالوصول معهم إلى طريق مسدود، فتوعدهم بنزول العذاب الذي حل بهم، متمثلاً بعذاب مشابه للعذاب الذي حل بقوم ثمود (الصيحة والرجفة)[١٦٥]. ونجى الله نبيه شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه[١٦٦].

ج – افتراضات حول العذاب ومصير الناجين منه:

كعادتهم اختلف المفسرون حول المكان الذي عاش فيه شعيب عليه السلام واتباعه الناجين، فبعضهم جعله في فلسطين على مقربة من حطين، والبعض الآخر جعله مكة وفق قولهم أنها المكان الذي يحل به كل الأنبياء بعد هلاك قومهم. لكننا قد أسلفنا أن التوراة استمرت في ذكرهم في نفس مواطنهم بعد زمن نبيهم شعيب عليه السلام حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وهو ما أشار إليه القرآن في إطار ذكره لقصة لجؤ موسى عليه السلام إليهم.

وهذا يجعلنا نفترض عدة افتراضات لتفسير ذلك، ويتمثل الأول منها بأن المؤمنين الناجين من قوم شعيب (ومثلهم قوم صالح وهود) قد استمروا في السكن في نفس مناطقهم، حتى وإن اضطروا إلى إقامة مستوطنات جديدة مجاورة لتلك التي أصابها العذاب، وهذا يعني بالضرورة عدم صحة الروايات السابقة التي أشارات إليها كتب التفسير – التي خالطها كثير من الإسرائيليات – من حتمية تركهم لمناطقهم سواء إلى مكة أو إلى غيرها.

أما الافتراض الثاني فيعتمد على ما سبق أن ذكرناه في أن اسم مدين هو اسم مزدوج يشمل القبيلة والإقليم، حيث نفترض أنه بعد الهلاك الذي شمل قبيلة مدين، ورحيل الناجون منهم عن المنطقة حل بدلاً عنهم قوم آخرون قطنوا منطقة مدين، وسموا المديانيين نسبة إلى المنطقة التي قطونها وليس إلى القبيلة التي حل بها العقاب، لكن هذا الإفتراض يتعارض مع ما سبق قوله عند تناولنا لذكر القرآن الكريم لقصة الشيخ المديانى مع النبي موسى عليه السلام، والترجيح بأنه كان إبن أخي شعيب عليه السلام أو أحد المؤمنين من قومه الناجين.

أما الافتراض الثالث والأخير، مفاده أن العذاب المذكور في القرآن الكريم، ربما كان يقتصر على حاضرة القبيلة، وليس على ديار القبيلة كلها، التي كانت تنتشر في منطقة أوسع حول تلك الحاضرة، ونستأنس في هذا الإفتراض بما ذكره المفسرون عن هلاك (ثمود قوم صالح عليه السلام) حيث نجدهم إنما يتحدثون

عن سكان مدينة الحجر الحاضرة الرئيسية لثمود، بينما كانوا قد ذكروا لنا بأن ديار قوم ثمود تشمل منطقة واسعة، تمتد من وادي القرى إلى بلاد الشام. وهذا الإفتراض تقويه الآيات القرآنية، التي تحدثت عن إعتراض علية القوم في عاد وثمود ومدين (الملأ)على دعوة أنبيائهم، وبالتالي هم الذين تعرضوا للعذاب الإلهي بصورة أساسية، كما نفهم ذلك من سياق الآيات القرآنية ﴿ وَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[١٦٧]. وإذا عرفنا أن الزعماء والقادة في أي مجتمع (الملأ) إنما يتركزون غالباً في الحاضرة الرئيسية لكيانهم السياسي أو القبلي (العاصمة)، فإن ذلك يزيد من قوة هذا الإفتراض بصورة كبيرة، وهذا يفسر لنا حلول أحد الأسميين (المنطقة وعاصمتها) نيابة عن الآخر، عند سرد قصص تلك الأقوام في السور القرآنية المختلفة.

الهوامش والمراجع

١ لا ندري لماذا أهمل مدونوا التوراة ذكر هاتين الأمتين مع أن القرآن الكريم قد أشار إلى أن موسى قد أخبر قومه بقصتهما (وقال موسى أن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) (إبراهيم / ٨،٩).

٢ مثلاً: الشيبة. عبدالله حسين، محاضرات في تاريخ العرب القديم، ط٢، صنعاء، ١٩٩٥م، ص ٨ .

٣ يحيى. العرب في العصور القديمة،بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٦٠،١٦١.

٤ أبو الغيث، عبدالله، الوحدة اليمنية في التاريخ هل كانت الأصل أم الإستثناء؟، بحث مقدم إلى ندوة الوحدة اليمنية والألفية الثالثة، المنعقدة في جامعة إب، مايو، ٢٠٠٧م، ص ٣ .

٥ الدنيوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عبدالمنعم عامر، مراجعة: جمال الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م،ص ٣.

٦ الأندلسي. ابن حزم، جمهرة انساب العرب، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٨، ٩.

٧ سورة الحاقة / ٨ .

٨ سورة النجم / ٥١ .

٩ مهران. محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج١، بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٥٥م، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

١٠ الأندلسي، ص ٩.
١١ سورة هود / ٥٨ ، ٦٦ ، ٩٤ .
١٢ ابن خلدون.عبدالرحمن، كتاب العبر، مج١، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٧٤، ٧٥.
١٣ سورة النجم / ٥٠ .
١٤ القلقشندي. أبو العباس أحمد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الابياري القاهرة – بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٢٨، ٣٢٩.
١٥ المسعودي.أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، تحقيق محمدى محي الدين عبدالمجيد، بيروت، (د. ت)، ص ٤٠.
١٦ سورة الأعراف / ٦٩.
١٧ ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل، قصص الأنبياء ط١، مرجعة: جمال الدمشقي، دار الإسراء، عمان، ٢٠٠٠ ملاء، ص ٦١.
١٨ مهران، دراسات تاريخية، ص ٢٤٩- ٢٥٠.
١٩ سورة البقرة / ٢٤٧.
٢٠ انظر هذه الاراء في: مهران، دراسات، ص ٢٦٥، ٢٦٦. الصعيدي. عبدالحكيم عبداللطيف، حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، مكتبة الدارالعربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٩٣، ٩٤.
٢١ لمزيد من التفاصيل عن تاريخ الحميرين وزمن ظهورهم ، Le Museon، Himyar Ancient History،Wissmann.H.V 1964.،77.3-4
٢٢ ابن كثير، القصص، ص٥٩.
٢٣ بوروتر. هارفي، موسوعة مختصر التاريخ القديم، ط١، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١١٤.
٢٤ سلامة. عواطف بنت أديب بن علي، أهل مدين: دراسة للخصائص والعلاقات، مكتبة الملك فهد، الرياض، ٢٠٠١م، ص ٢٣، ١٥٤، ١٦٦.
٢٥ ابن كثير، القصص، ص ١٢٤.
٢٦ القلقشندي، ص٣٢٨.
٢٧ الصعيدي، ص٧٢- ٧٩.
٢٨ انظر الخريطة لدى: Sprenger. A، Die ALte Geographie Arabiens،Amsjerdam، 1865 ، p.p. 345

٢٩ سورة الأحقاف / ٢١.
٣٠ هبو. أحمد أرحيم، تاريخ العرب قبل الإسلام، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٧٦.
٣١ يحيى، العرب في العصور القديمة، ص ١٦٢- ١٦٧.
٣٢ سورة النجم / ٥٠- المسعودي، ص ٤٠. تجدر الإشارة أن هناك من يرى بأن ما عرف بالكتابات الصفوية في أقصى شمال الجزيرة العربية ما هي إلا نقوش لقوم عاد (عبد الله. يوسف محمد، ثلاثة نقوش صفوية، مجلة كلية الادآب، جامعة صنعاء، العدد٢، ١٩٧٩م، ص ٦٧، ٦٨)، إلا أن الفارق الزمني بين التاريخ الذي يضعه الدارسون للنقوش الصفوية (الحقبة الواقعة بين القرنين الأول والرابع الميلاديين)، وبين التاريخ الذي عاش فيه قوم عاد المذكورين في القرآن الكريم (الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً) يقف حائلاً أمام هذا الرأي.
٣٣ القلقشندي، ص ٢٠٠- ابن كثير.عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج٢، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د. ت)، ص ٢٣٢.
٣٤ الذييب. سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٩م، ص ٧، ٩- نقوش ثمودية جديدة من الجوف، الرياض، ٢٠٠٣م، ص ١٤. تجدر الإشارة إلى أن هناك من يعيد بداية ظهور هذه الكتابات إلى فترة متأخرة عن التاريخ المحدد أعلاه، انظر مثلاً.) Brockelman، Das Arabische Und Seine Mundarjen، In: Ho ، III semijistik، p.p. 209)
٣٥ أبو الغيث. عبدالله، العلاقات السياسية بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها من القرن الثالث حتى القرن السادس الميلاديين، ج١، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م،ص ٤١. الراجح أن الثموديين المذكورين في القرآن الكريم قد عاشوا خلال النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد كما سنوضح ذلك لاحقاً.
٣٦ الذييب، نقوش ثمودية من المملكة، ص ٣– ٤.
٣٧ سلامة، مدين، ٢٠٠١، ص ٢٠- ٧٨ .
٣٨ أطلس العالم، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، ٢٠٠٣، خارطة المملكة العربية السعودية، ص ٤٩.
٣٩ سورة الأعراف/ ٨٥، سورة هود/ ٨٤ .
٤٠ سورة التوبة/ ٧٠، سورة الحج/ ٤٤ .

٤١ سورة طه/ ٤٠ .
٤٢ المقريزي. تقي الدين، الخطط المقريزية، ج١، القاهرة، (د،ت)، ص ١٨٦ .
٤٣ علي. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت – بغداد، دار العلم للملايين، ١٩٧٦م، ج١، ص ٣٠٠ .
٤٤ ابن الاثير. أبو الحسن علي أبو الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، مج١، بيروت،١٩٦٥م، ص ٣٥١ – ٣٤٥ – الحميري. نشوان بن سعيد، ملوك حمير وأقيال اليمن: قصيدة نشوان بن سعيد الحميري وشرحها، تحقيق: علي بن اسماعيل المؤيد واسماعيل بن أحمد الجرافي، بيروت – صنعاء، ١٩٧٨م، ص ١٣٨.
٤٥ أبو الغيث، العلاقات، ج٢، ص ١٥-١٧ .
٤٦ سورة الأعراف / ٦٩ .
٤٧ سورة الأعراف / ٧٤ ، يرى البعض أن المقصود بالخلافة هنا هي الخلافة المكانية، اعتماداً على الرأي الذي أشرنا إليه سابقاً الذي يجعل موطن العاديين في شمال الجزيرة العربية وليس في جنوبها كما هو المرجح، ولكن ذلك الرأي يعني في حال اعتمادنا له بأن قوم عاد قد عاشوا في بلاد الرافدين لكون القرآن قد وصفهم بأنهم خلفاء قوم نوح، الذين يرجح بشكل واسع أن موطنهم كان في بلاد الرافدين التي يتكرر في نقوشها السومرية والبابلية قصص عن الطوفان (عن هذه القصص انظر: على، فاضل عبدالواحد، من ألواح سومر إلى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٨٩م، ص ٢٦٩- ٢٧٩). تجدر الإشارة أن هناك من يرى أن النبي نوح وقومه قد عاشوا في شبه الجزيرة العربية وليس في بلاد الرافدين (الشحري، علي أحمد، ظفار كتاباتها ونقوشها القديمة، ط١، ١٩٩٤م، ص ٥)، وهذه قصة أخرى ليس هنا مجال مناقشتها.
٤٨ سورة إبراهيم / ٩ .
٤٩ مهران، محمد بيومي، مصر والشرق الادنى القديم، ج ٨، الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٢٣٤، ٢٣٥ .- حتى، فيليب، خمسة الآف سنة من تاريخ الشرق الادنى، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٧ .
٥٠ الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ٧.
٥١ مهران، دراسات، ص ٢٦٠ .

٥٢ الدنيوري، الأخبار، ص ٧ .
٥٣ سفر التكوين/ ٢٨:٣٧ .
٥٤ سورة يوسف/١٩ - السيوطي، جلال الدين والمحلى جلال الدين، تفسير الإمامين الجلالين، بيروت،١٩٨٧م، ص ٣٠٤-٣٠٥ .
٥٥ سورة هود / ٨٩ .
٥٦ سورة القصص / ٢٣ .
٥٧ ابن كثير، التفسير، ج٣، ص ٣٩٨ .
٥٨ قطب. سيد، في ظلال القرآن، ج٥، ط٢٥، دار الشروق، القاهرة،١٩٩٦م، ص ٢٦٨٧، هامش(١) .
٥٩ سفر الخروج / ٢: ٣،١٦ : ١ .
٦٠ ابن كثير، التفسير، ج٣، ص ٣٩٨ .
٦٠ لمزيد من التفاصيل عن الدول التي قامت في شبه الجزيرة العربية، جنوباً وشمالاً، وتواريخ نشأتها انظر على سبيل المثال: الجرو، أسمهان، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية: اليمن القديم، إربد، ١٩٩٦م، أبوالغيث. عبدالله، تاريخ بلاد العرب القديم، ط١، مركز الأمين، صنعاء، ٢٠٠٤ .
٦٢ سورة الشعراء / ١٢٨- ١٢٩.
٦٣ سورة الشعراء / ١٣٣- ١٣٤.
٦٤ سورة هود / ٥٢.
٦٥ سورة المؤمنون / ٣٣.
٦٦ سورة هود / ٥٢.
٦٧ سورة الأعراف/ ٦٦ ، وقد قصد القرآن الكريم (بالملأ) أهل الحل والعقد، أو الهيئة الإستشارية في زمن القوم الذين يتحدث عنهم. ومن ذلك ما ذكره عن: ملأ قوم نوح (الأعراف /٦٠)، وملأ ثمود (الأعراف/٧٥)، وملأ مدين (الأعراف/٨٧)، وملأ فرعون يوسف (يوسف/٤٣)، وملأ فرعون موسى (الأعراف/ ١٢٧)، وملأ بني إسرائيل (البقرة /٢٤٦)، وملأ سبأ (النمل/٢٩)، وملأ سليمان (النمل/٣٨)، وملأ قريش(ص /٦).
٦٨ سورة هود / ٥٩.
٦٩ سورة الشعراء / ١٣٠.
٧٠ سورة الأعراف / ٧٤.

٧١ مهران، دراسات، ص ٢٦٨.
٧٢ سورة الشعراء / ١٤٧_ ١٤٨.
٧٣ سورة الشعراء / ١٥٥.
٧٤ ابن كثير، التفسير، ج٢، ص ٢٣٣.
٧٥ سورة الشعراء / ١٤٦ _ ١٤٩.
٧٦ سورة النمل/ ٤٨.
٧٧ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: محمد شحاتة إبراهيم، مج١، ج٢، دار المنار، القاهرة ، (د. ت)، ص ٢٥٤- ٢٥٧.
٧٨ مهران، دراسات، ص ٢٨٤– ٢٨٦.
٧٩ الذييب، نقوش ثمودية من الجوف، ص ٢٠.
٨٠ بافقيه. محمد عبدالقادر، في العربية السعيدة: دراسات تاريخية قصيرة، ج١، صنعاء، ١٩٨٧م، ص ١٩.
٨١ انظرالنقش في: الروسان، القبائل الثمودية والصفوية، الرياض، ١٩٨٧م، ص١٤٧.
٨٢ سورة الأعراف/ ٨٥ .
٨٣ سورة هود/ ٨٤ .
٨٤ تذكر بعض المصادر العربية أنهم أول من سن ضريبة العشر على القوافل التجارية المارة بأرضهم (ابن كثير، القصص، ص ١٢٤).
٨٥ سلامة، مدين، ص ٢٢ .
٨٦ سورة الأعراف/ ٨٥ .
٨٧ سورة هود/ ٦٨ .
٨٨ سفر العدد/ ٣١:٨ - سلامة، مدين،ص ١١٣-٥٨٥.
٨٩ سورة القصص /٢٥ .
٩٠ لمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب، انظر: سلامة، مدين،ص ٥٦٢-٥٨٨.
٩١ سورة القصص/٢٣ .
٩٢ سفر الخروج/٢:١٦-١٨ .
٩٣ الرازي. محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة المؤيد، الطائف، ١٩٧١م، مادة (ذود) .
٩٤ سفر القضاة/ ٧: ١٢ .
٩٥ سفر أشعيا/ ٦٠/ ٦ .
٩٦ سلامة، مدين، ص ٢٩٨- ٦١٥ .

٩٧ إسماعيل. عارف أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ج٢، العراق وبلاد الشام، المنتدى الجامعي، صنعاء، ٢٠٠٢، ص ١١٨ .
٩٨ سلامة، مدين، ص ٣٣٦، ٦١٥.
٩٩ سورة الفجر / ٦ – ٨ .
١٠٠ سورة الأعراف / ٦٩ .
١٠١ سورة فصلت / ١٥ .
١٠٢ ابن كثير،التفسير، ج٤، ص ٥٠٧، ٥٠٨ .
١٠٣ ابن كثير،التفسير، ج٤، ص ٥٠٧، ٥٠٨،وربما بناء على ذلك اختلفوا في تحديد موقعها حيث امتدت تلك الاختلافات ما بين أبين اليمن جنوباً، ودمشق الشام شمالاً، وأور العراق شرقاً، وإسكندرية مصر غرباً.
١٠٤ سورة الحجر / ٨٠ .
١٠٥ عن المعاني المتعددة لكلمة الخلق، انظر، مختار الصحاح، (مادة – خ ل ق).
١٠٦ سورة العنكبوت / ١٧ .
١٠٧ انظر على سبيل المثال سورة الصف التي تتحدث آياتها الأولى عن الجهاد (آية/٤) ثم تنتقل للحديث عن قصة موسى وعيسى لتعود بعد ذلك لمواصلة الحديث عن الجهاد مرة أخرى (الآيات/١٠- ١٢). وكذلك سورة عبس التي تتحدث عن الأعمى (ابن أم مكتوم) (الآيات/١- ٤)، ثم انتقلت للحديث عن الكفار من زعماء قريش لتعود بالحديث عن الأعمى من غير تكرار اسمه (الآيات / ٨- ١٠).
١٠٨ مختار الصحاح (مادة – ع م د).
١٠٩ سورة الأحقاف / ٢٥ .
١١٠ سورة الحاقة / ٦.
١١١ لا ندري مدى صحة الروايات التي تحكي عن التقاط الأقمار الصناعية لبقايا مدينة أثرية تحت الرمال المتحركة في صحراء الربع الخالي (الأحقاف)، وإن صدق شئ من ذلك فمن غير المستبعد أن تكون تلك هي مدينة إرم عاد التي ذكرت معظم المصادر أنها قد غاصت في رمال هذه المنطقة حسبما ذكرنا سابقاً.
١١٢ سورة الحجر / ٨٠ .
١١٣ انظر تفاصيل الرواية في: ابن كثير، التفسير، ج٢، ص ٢٣٢- ٢٣٥ .
١١٤ عن موقع مدائن صالح، انظر: دليل المواقع الجغرافية في المملكة العربية السعودية، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م، ص ٥٦١ .
١١٥ الذييب، نقوش ثمودية من المملكة، ص٤، ٥ – الأنصاري. عبدالرحمن الطيب (وآخرون)، مواقع أثرية وصور من حضارة العرب، الرياض، ١٩٨٤، ص١٧.

١١٦ مهران، دراسات، ص ٢٧٦ .
١١٧ عن موقع الخريبة والعلا بالنسبة لمدائن صالح انظر: دليل المواقع الجغرافية، ص ٢٠٥، ٤٣١، ٥٦١ .
١١٨ انظر: سورة الأعراف / ٧٥- ٧٩ .
١١٩ سورة النمل / ٤٨.
١٢٠ عن عدم وجود كيان سياسي لثمود انظر: مهران، دراسات، ص ٢٨٣.
١٢١ سورة الشعراء/ ١٨٩ .
١٢٢ ابن كثير، التفسير، ج٢، ص ٤٦٩، ج٣، ص ٣٥٧ .
١٢٣ سورة الحجر ٨٠ .
١٢٤ سورة الشعراء/ ١٧٦ .
١٢٥ Josephus،Archaeulogia، II، 257 ، نقلاً عن: مهران، دراسات، ص ٢٩٨- ٣٠٠ .
١٢٦ سلامة، مدين، ص٨٤- ٨٩ .
١٢٧ القلقشندي، ص ٤١٦.
١٢٨ المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٨٨ .
١٢٩ عن طبيعة واحة البدع أنظر: ابو العلاء. محمود طه، جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج٢، ط٥، القاهرة، ١٩٨٦م،، ص ٦٥- ٦٨ .
١٣٠ عن آثار واحة البدع انظر: سلامة، مدين، ص ٨٧- ٨٨ .
١٣١ عن موقع (الأيكة- ليكة) الحالي، انظر: دليل المواقع الجغرافية السعودية/ ص٦٣، ٥٤٤، ٥٦١ .
١٣٢ سورة الحجر/ ٧٨، سورة ق/ ١٤ .
١٣٣ سورة الشعراء/ ١٧٦، وسورة ص/ ١٣ .
١٣٤ سورة هود / ٥٣.
١٣٥ ابن كثير، القصص، ص ٥٩.
١٣٦ سورة هود / ٥٠.
١٣٧ سورة هود / ٥٢.
١٣٨ ينطبق ذلك أيضاً على دعوة صالح وشعيب.
١٣٩ سورة هود / ٦١.
١٤٠ سورة هود / ٦٢.
١٤١ سورة الأعراف / ٧٤.
١٤٢ ابن كثير، ج٢، ص ٢٣٣- ٢٣٤.
١٤٣ عن وضع المرأة الثمودية في النقوش، انظر: مهران، دراسات، ص ٢٨٧.

١٤٤ انظر النقش في:الذييب، نقوش ثمودية من سكاكا،الرياض، ٢٠٠٢م، ص ١٠.
١٤٥ سورة هود/ ٨٧ .
١٤٦ سورة هود/ ٨٧ .
١٤٧ سورة الشعراء/ ١٨١- ١٨٣ .
١٤٨ سورة هود/ ٨٧ .
١٤٩ سورة هود / ٥٩.
١٥٠ يتكرر هذا مع قوم صالح (سورة الحجر/٨٠)،وقوم شعيب (سورة الشعراء/١٧٦) .
١٥١ ابن كثير، التفسير، ج١، ص٤٦١.
١٥٢ مثلاً سورة فصلت / ١٦، سورة الأحقاف / ٢٤، سورة الذاريات / ٤١، سورة الحاقة / ٦.
١٥٣ سورة هود / ٥٨.
١٥٤ مهران، دراسات، ص ٢٥٦، الصعيدي، ، ص ٩١.
١٥٥ سورة الأعراف / ٧٧- سورة النمل / ٤٩.
١٥٦ سورة هود / ٦٦.
١٥٧ مهران، دراسات، ص ٢٧٨.
١٥٨ ابن كثير، القصص، ص ٧٦.
١٥٩ مهران، دراسات، ص ٢٧٦.
١٦٠ سورة الأعراف/ ٨٦ .
١٦١ سورة الأعراف/ ٨٨ .
١٦٢ سورة الأعراف/ ٨٩ .
١٦٣ سورة التوبة/ ٧٠ .
١٦٤ سورة هود/ ٩١ .
١٦٥ سورة هود/ ٩٤، سورة الأعراف/ ٩١ .
١٦٦ سورة هود/ ٩٤ - يعتقد البعض أن نسب قبيلة جذام العربية يمتد إلى هؤلاء الناجين من قوم مدين. انظر: القلقشندي، ص ٢٠٦ .
١٦٧ سورة الأعراف/ ٩٠- ٩١ .